أَلْجُمْلَةُ التَّذْييلِيَّةِ في القُرآنِ الكَرِيمِ
مَفْهُومُها وأَقْسَامُهَا وَدَلالاتُهَا

م. د. علي موسى عطلة
كلية التربية - جامعة ميسان

فحوى البحث

هذه الدراسة أفردها الباحث للجملة التذييلية في القرآن الكريم، من حيث بيان مفهومها وأقسامها، وأثرها في فهم النص القرآني. وهي جملة تامة، تحتفظ بعلاقات الإسناد والتركيب والإفادة، وعادة ما تكون جملةً موجزةً يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً، وتلك هي الدلالة الكبرى لها، بيد أنّها تتصرف إلى أغراض ودلالات عديدة بحسب السياق الذي ترد فيه.

ويشتمل البحث على تمهيدٍ يتضمن التأسيس لمصطلح الجملة التذييلية وبيان مواقعها؛ وعلى مبحثين، الأول في أقسام الجملة التذييلية، والمبحث الثاني في التناسب بين المعنى في الجملة التذييلية والمعنى العام في سياق الآية، وتضمن خاتمةً اشتملت على أهم التوصيات والنتائج التي توصل إليها.

المقدمة:

لا ريب أن القرآن الكريم منبع العلوم العربية وأساسها، ومعين مختلف المعارف وموردها، «وأن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلاّ به»[1].

وتناولت مزيدٌ من الدراسات والبحوث الجملة في القرآن الكريم، من حيث أقسامها، وأنماط تراكيبها، وبناؤها، ودلالاتها، كما كثر الحديث عن محور دراسة الفاصلة القرآنية، بيد أنه لم يفرد بحث مستقل للجملة التذييلية، يبين مفهومها وأقسامها، وأثرها في فهم النص القرآني. ويراد بها الجملة الموجزة التي يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً.

وليس من ذي مسكة يغفل مكانة هذه الجملة وأهميتها في بناء النص القرآني، وإظهار دلالاته، فالآيات القرآنية غالباً ما تذيل بجمل تتلاءم مع دلالاتها، وتتناسب مع صدروها، والترابط القائم بين أجزاء الآية يعدّ لوناً من ألوان إعجاز القرآن الكريم، ومن مظاهر انسجام النصّ القرآني وتماسك بنائه وتناسب أجزائه.

من هنا حاولت في هذا البحث المتواضع إبراز ذلك من خلال تمهيد بينت فيه التذييل لغة واصطلاحاً، والمعنى الاصطلاحي المقصود من الجملة التذييلية، إذ تعددت المصطلحات الممكن إطلاقها على هذا النوع من الجمل، فرجّح البحث هذا المصطلح، لكونه جامعاً مانعاً، ولأن كثيراً من المفسرين ذكروه في تفاسيرهم، فضلاً عن أن التذييل مصطلح شائع في التراث البلاغي والعروضي.

وأشفعت ذلك بمبحثين، الأول تضمن ذكر قسمين أساسيين من أقسام الجملة التذييلية من حيث دلالاتها، أشار إليهما البلاغيون، القسم الأول: الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها، والقسم الثاني: الجملة الجارية مجرى الأمثال. وبينت أهم أغراض هذين القسمين ودلالاتهما.

(١) نهج البلاغة بتحقيق محمد عبدة: ١/ ٥٥- خطبة ١٨.

وتناولت في المبحث الثاني التناسب بين المعنى في الجملة التذييلية والمعنى العام في سياق الآية، مشيراً إلى التناسب الظاهر الذي لا يحتاج فهمه إلى كثير عناء، ويدركه سائر المعنيين بفهم الخطاب القرآني، والتناسب الخفي الذي يحتاج الوصول إلى المناسبة فيه إلى مزيد من التأمل والفكر. وختمت البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها.

معتمداً في كل ذلك مصادر التفسير وغيرها التي عنيت بإظهار قيمة التذييل وأسراره البلاغية، ومن أبرزها: الكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي، ونظم الدرر للبقاعي، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود، وروح المعاني للألوسي، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور. آملاً أن يكون هذا قد قدّم شيئاً جديراً بالنظر، والله ولي التوفيق.

التمـــهيد

مفهوم التذييل

قبل الخوض في تفاصيل هذا البحث، أجد من الضروري أن أمهّد أولاً لبيان أبعاد هذا المصطلح اللغوية، ومن ثم أبين وجهات النظر في المعنى الاصطلاحي المقصود في هذا العنوان طبقاً لمعطيات المعاجم اللغوية وغيرها.

التذييل لغة

جاء في المعنى اللغوي لمادّة (ذيل): الذيل: هو ما أسبل فأصاب الأرض من الرداء والإزار. والذيل: آخر كلّ شيء، وواحد أذيال القميص وذيوله، ويقال: أذال فلان ثوبه، وذيّل ثوبه تذييلاً، إذا أطال ذيله. والتذييل: تطويل الذيل.

وذيل المرأة: كلّ ثوبٍ تلبسه إذا جرّته على الأرض من خلفها. والذيل في درع المرأة أو قناعها: إذا أرخت شيئاً منهما، وذالت المرأة تذيل ذيلاً، أي جرّت ذيلها على الأرض وتبخترت. وأذالت المرأة قناعها، أي أرسلته. وذال الرجل يذيل ذيلاً: تبختر فجرّ ذيله.

وذيل الريح: ما انسحب منها على الأرض، أو ما تتركه في الرمل كأثر ذيل مجرور، وقيل: أذيال الريح مآخيرها التي تكسح بها ما خفّ لها.

وذيل الفرس والبعير والثور الوحشي

ونحوها: ذَنَبه إذا طال، أو ما أسبل منه فتعلّق، وفرس ذائل، وذيّال ومُذيّل: ذو ذيل، أو طويل الذيل. والأنثى: ذائلة. وذال الفرس وأذيل: صار له ذيل، وذال بذنبه: شال. وتذيّلت الدابة: حركت ذنبها، وتذيّل: تبختر. والذيّال: الطويل القدّ. ومن الخيل: المتبختر في مشيه، وجمع الذيل: أذيال، وأذيل، وربما قالوا: ذيول. وقولهم: جاء أذيال من الناس، أي أواخر منهم قليل[٢].

فالمادة بمجملها تدلّ على البسط والنشر والامتداد والسعة والطول. قال بن فارس: « الذال والياء واللام أَصَيلٌ واحد مطّرد منقاس، وهو شيءٌ يسفُل في إطافة. من ذلك: الذَّيل، ذَيل القميص وغيرِه. وذَيل الرِّيح: ما انسحَبَ منها على الأرض. وفرسٌ ذيّالٌ: طويل الذّنَب»[٣].

(٢) تنظر مادة (ذيل) في: كتاب العين: ٨/ ١٩٧، والصحاح: ٤/ ١٧٠٢، والفائق في غريب الحديث١/ ٤٠٨، والنهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٧٥، ولسان العرب: ١١/ ٢٦٠، والقاموس المحيط: ٣/ ٣٨٠، وتاج العروس ٧/ ٣٣١.

(٣) معجم مقاييس اللغة -ذيل -: ٢/ ٣٦٦.

التذييل في العروض والبلاغة:

إنّ المعاني المتقدمة التي تتضمنها مادة (ذيل) في معاجم اللغة، تكشف النقاب عن الدلالة الاصطلاحية للتذييل عند العروضيين والبلاغيين، فثمّة مناسبة بين دلالة اللفظ اللغوية والاصطلاحية تساعد على كشف المعنى وتوضيحه، ومن ثم يمكن من خلالها أن نقف على تحديد مفهوم الجملة التذييلية، وبيان أنماطها.

فالتذييل عنوان بارز في الدرس النقدي والبلاغي، أفاض في بحثه العلماء القدماء والمحدثون، وهو عند العروضيين من علل الزيادة، ويراد به: زيادة حرف ساكن على ما آخره وتدٌ مجموع، نحو زيادة الألف قبل نون (متفاعلن) و (مستفعلن) و(فاعلن) فتصير (متفاعلان) و (مستفعلان) و (فاعلان)[٤].

أما علماء المعاني فعدّوا التذييل

(٤) تنظر مادة (ذيل) في: لسان العرب: ١١/ ٢٦١، وتاج العروس: ٧/ ٣٣٢. وينظر: ميزان الذهب: ١٣، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ١٣١.

قسماً من أقسام الإطناب كالقزويني والسيوطي[٥]، وعدّه آخرون لوناً مستقلاً من ألوان البديع كالعسكري والباقلاني[٦]. ووقفوا على مفهومه وأنواعه، ومثلوا له من الشعر والقرآن.

ومرادهم من التذييل «هو أن يذيّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملٍ تحقّق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيداً، أو تجرى مجرى المثل بزيادة التحقيق»[٧].

ويجري التذييل في القرآن الكريم، وفي السنة الشريفة، وفي منظوم كلام العرب ومنثوره، وله أمثلة كثيرة في كلّ ذلك، منها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ [سورة سبأ: ١٧]. أي «هل يجازى ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلا الكفور»[٨].

ووقع ذلك في السنة الشريفة، ومنه ما رواه ابن عباس عن النبيﷺ أنه قال: «إن ربكم رحيم، من همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتب له عشر أضعاف إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عليه سيئةٌ واحدةٌ أو محاها، ولا يهلك على الله إلا هالك»[٩]. فقوله: «لا يهلك على الله إلا هالك» تذليل لما تقدّم، وقد خرج الكلام فيه مخرج الأمثال[١٠].

ومن المنظوم قول ابن نباتة السعدي يمدح سيف الدولة:

(٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة في علوم البلاغة: ١/ ١٩٠، ومختصر المعاني: ١٧٨، وجواهر البلاغة: ٢٣٢.

(٦) ينظر: كتاب الصناعتين: ٤١٣، وإعجاز القرآن: ١/ ١٠٢. ومن مصادر البلاغة الأخرى التي أفردته بمبحث خاص: كتاب بديع القران لابن أبي الإصبع المصري، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي، كما نجده في شروح التلخيص للتفتازاني وغيرها.

(٧) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٢٤٢، معجم المصطلحات البلاغية: ٢/ ١٢٢. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٧٦، وصور البديع -فن الأسجاع: ٤٣، ولغة القرآن في جزء عم: ٣٦٩، والفاصلة القرآنية: ١٩.

(٨) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٨، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٨.

(٩) المعجم الكبير: ١٢/ ١٢٥.

(١٠) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٢٤٢.

لم يبقِ جودُك لي شيئاً أؤمّله
تركتني أصحبُ الدنيا بلا أملِ[11]

فصدر البيت مكتمل المعنى؛ لأنه استوفى ما أراده من المدح فيه، ثم احتاج إلى تذييل البيت، بتكرار المعنى المتقدم فيه استحساناً وتوكيداً، فأخرجه مخرج المثل السائر حيث قال: (تركتني أصحب الدنيا بلا أمل)، ليحصل ما أراده من التوكيد وزيادة المعنى[12].

والدارسون في علوم القرآن، لم يخرجوا من دائرة تعريفات البلاغيين؛ ذلك لأن البلاغة إنما نشأت في رحم الدراسات القرآنية، مظهرة لبيان القرآن، وكاشفة عن تميزه وإعجازه، ففي برهان الزركشي: «التذييل... اصطلاحاً: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل، ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند من فهمه»[13].

(١١) الديوان ١: ٢٥٢.
(١٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩٠ -١٩١، وخزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٢٤٤، وجواهر البلاغة: ٢٣٢.

الجملة التذييلية:

التذييل المتقدّم عن البلاغيين لا يتقيد بلفظ، بل يتعداه إلى جملةٍ مستقلة تعود بمفهومها إلى متقدم، قال أسامة بن منقذ في التذييل: «هو أن تأتي في الكلام جملةٌ تحقّق ما قبلها»[14].

وذكر السيوطي وغيره أنّ التذييل: «هو أن يؤتى بجملة عقب جملة، والثانية تشتمل على معنى الأولى، لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرر عند من فهمه»[15]. فالتذييل يكون بجملةٍ غايتها إيصال المعنى إلى المتلقي، وتحقيق الفهم وتوكيده في نفوس المخاطبين.

فالجملة التذييلية بناءٌ تركيبيّ ودلاليّ

(١٣) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٨، وينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٨.
(١٤) البديع في نقد الشعر: ١٢٥.
(١٥) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢٧٩، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩٠، والتوقيف على مهمات التعاريف: ١/ ١٦٨، ومختصر المعاني: ١٧٨، وجواهر البلاغة: ٢٣١.

تام المعنى، يحتفظ بعلاقات الإسناد والتركيب والإفادة، وهي جملة موجزة، تمتاز بالتكثيف الدلالي، يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً. أي إنها تؤدي وظيفةً إيضاحيةً بيانيةً، أو توكيديةً تحقيقيةً.

وقد ورد هذا المصطلح عند ابن حجة الحموي في الشاهد (٣٧٤) وهو قوله:

إذا زجر السفيه جرى إليه

وخالف والسفيه إلى خلاف

قال: «السفيه إلى خلاف: جملة تذييلية، أي شان السفيه الميل إلى مخالفة الناصح، وهذا البيت لم يعزه الفراء إلى أحد»[١٦]. وورد مصطلح الجملة التذييلية عند أبي السعود، والشوكاني، والآلوسي، وابن عاشور، في موارد من تفاسيرهم[١٧].

(١٦) خزانة الأدب وغاية الأرب: ٥/ ٢٢٦.

(١٧) ينظر: تفسير أبي السعود: ١/ ١٢٣، وفتح القدير: ١/ ٣٤٥ و٣٧٠ و٣٧٦، و٢/ ٣٩٢، و٤٧١ و ٤٧٧ و٤٧٨، وروح المعاني٩/ ١٣ و١٨٠، و١١/ ١٦٣، و١٣/ ١٣، والتحرير والتنوير: ١٢/ ١٦٩، و١٦/ ١٧٨.

وأطلق عليها بعض الباحثين المحدثين هذا المصطلح أيضاً، وعرفها بقوله: «هي التي تؤكّد مدلول النصّ، وغالباً ما تكون ممثلة لنهاية النصّ»[١٨]. وأضاف: «وغالباً ما تأتي الجمل التذييلية في نهاية نصّ الآية بتركيب مناسب مناسبةً إعجازيةً لما تقدم من الجمل»[١٩].

وذكرت باحثة أخرى أنّ الجملة التذييلية «تعدّ وحدةً تركيبيةً خاصةً تتنوع حسب المقام والمعنى المقصود والغاية المرجوة، بوصفها فناً إطنابياً يؤدي دوره التذييلي من خلال صورتين، حرص البلاغيون على ذكرهما، وهما:

أ. التذييل الذي يجري مجرى المثل.

ب. التذييل الذي لا يجري مجرى المثل»[٢٠].

مواقع الجملة التذييلية:

قد يتبادر إلى الذهن أنّ الجملة التذييلية يتوجب أن تقع في آخر الآي،

(١٨) آيات المعاملات في القرآن الكريم: ٤٣.

(١٩) آيات المعاملات في القرآن الكريم: ٦٠-٦١.

(٢٠) الإطناب في القران الكريم، أنماطه ودلالاته -دراسة بلاغية: ٢٤٣.

وهو الغالب فيها، بيد أنها قد تقع في وسطها، أو في ختامها، أو تكون آيةً برأسها، تأتي بعد تمام المعنى، على سبيل التأكيد أو التقرير والتحقيق.

ومن أمثلة توسط الجملة التذييلية التي تؤكد مقطعاً من الآية: قوله سبحانه: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩١]. فقوله عز وجل: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. جملة تذييلية جاءت في وسط الآية، تأكيداً للجملة السابقة لها[٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٢-٤٣]. فقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ﴾، جملة تذييلية[٢٢]، وهي جملة وسطية، لم ينته الكلام عندها.

وقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤]. فقد وردت الجملة التذييلية في وسط الآية، وهي قوله: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، معقبة على الجملة السابقة ومؤكدة لها. وهذا التذييل جارٍ مجرى المثل، كما هو واضح من تركيبه، «وهو من قبيل قولهم: يوم بيوم، والحرب سجال»[٢٣].

وأمثلتها في ختام الآي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [سورة النساء: ٣٧]. فقوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. جملة تذييلية

(٢١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ١٩٩.

(٢٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢/ ١٨٥.

(٢٣) التحرير والتنوير: ٢/ ٢١٠.

تقرر مضمون ما قبلها[٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة ال عمران: ٥٧]. فقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ «جملة تذييلية مقررة لما قبلها»[٢٥].

ومثال على الجملة التذييلية التي تكون آية برأسها تؤكد أو تقرر مضمون آية أو آيات سابقة لها: قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة ص: ٨٦-٨٧]. فقوله سبحانه: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾. جملة تذييلية للآية التي قبلها.

وقوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون: ٦]، فهذه الآية «تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيه من التأكيدات، وقد أرسل هذا الكلام إرسال المثل»[٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٧١ -٧٥]. فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ جملة تذييلية، وقد جاءت آية برأسها.

اصطلاحات بديلة:

عبّر بعض المفسرين والباحثين عن الجملة التذييلية ببعض الاصطلاحات البديلة منها ما يفي بالغرض لكونه جامعاً مانعاً، ومنها ما يقصر عن ذلك، وكما يأتي:

١. **جملة الفاصلة القرآنية**: أُطلق عليها هذا المصطلح؛ لكونها أقرب الجمل في الآية إلى الفاصلة القرآنية؛ ولأنها تكتنف تلك الفاصلة، إذ تقع الفاصلة في آخرها[٢٧].

وعلى الرغم من التداخل بين الفاصلة والتذييل، لاسيما إذا جاءت الفاصلة في ختام التذييل، لكن الفاصلة تنفرد بكونها لا تأتي إلا في آخر الآية،

(٢٤) ينظر: روح المعاني: ٥/ ٣٠.
(٢٥) فتح القدير: ١/ ٣٤٥.
(٢٦) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٢.
(٢٧) ينظر: الجملة في القرآن الكريم: ٢٥٣.

ويأتي التذييل في وسطها أو في آخرها، وقد تأتي الفاصلة بغير الجملة، أما التذييل فيأتي دائماً جملة[٢٨].

ثم أن تسمية الجملة التذييلية بجملة الفاصلة، أمرٌ يخضع لمفهوم الفاصلة عند العلماء؛ وهم في ذلك فريقان:

الفريق الأول: يعدّ الفاصلة آخر الآي، كقافية الشعر وقرينة السجع، ومنهم أبو علي الفارسي، والزركشي، والراغب الأصفهاني، وابن منظور، والفيروزآبادي، وتابعهم بعض المتأخرين[٢٩].

وعلى وفق رأي هؤلاء، لا يصحّ إطلاق مصطلح (جملة الفاصلة) على الجملة التذييلية؛ لأنّ الفاصلة لا تكون إلّا في آخر الآية، وبذلك تخرج الجمل التذييلية الواقعة وسطاً من حدّ التعريف، فهو غير جامع من هذه الناحية.

ومعلوم أنّ الفاصلة قد تكون في جملة تذييلية، وقد تكون في غيرها، فليس كلّ آي القرآن مختوماً بجملٍ تذييلية؛ لأن بعض الآي عبارة عن جملة واحدة، فتسمينها بجملة الفاصلة يدخل فيها سواها من الفواصل غير المذيّلة، فهو غير مانع من هذه الناحية.

والفريق الثاني: كأبي عمرو الداني وغيره يرى أنّ الفاصلة كلمة آخر الجملة، وإن لم تكن رأس آية[٣٠]، أي إنّ الفاصلة تكون رأس أية، وتكون غيرها، يقول الداني: «وأما الفاصلة فهي الكلام التام المنفصل مما بعده، والكلام التام قد يكون رأس آية وغيرها، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آي وغيرها، فكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمّ النوعين، وتجمع الضربين»[٣١].

(٢٨) ينظر: التذييل في القران الكريم، دراسة بلاغية: ٢١.

(٢٩) ينظر: تفسير التبيان: ٥/ ٥٩، ومفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٨، ومجمع البيان: ٤/ ٤١٢، ولسان العرب -فصل -١١/ ٥٢٤، والتسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ١٥، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٥٣، والقاموس المحيط -فصل -٤: ٣٠، ومن بلاغة القرآن: ٧٥، والفاصلة في القرآن الكريم: ٢٩، وأبحاث في أصوات العربية: ١٤٣، وفواصل الآي في القرآن: ٨٤.

(٣٠) ينظر: البرهان في علوم القرآن١/ ٥٣-٥٤، ومختصر المعاني: ١٧٨، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ٤٠٥، ومباحث في علوم القرآن: ١٥٣.

(٣١) البيان في عدّ آي القرآن: ١٢٦.

وعلى وفق هذا الرأي تشمل (جملة الفاصلة) جميع الجمل التذييلية، سواءً أكانت رأس أيةٍ أو وسطاً، لكنها تتسع لغيرها مما يكون رأس آيةٍ لكنه لا يتضمن جملةً تذييلية، فالمصطلح جامع لكنه غير مانع.

٢. **الجملة المُذَيَّلَة**: والجملة التي قبلها تسمى مذيَّلَة، هكذا وصفها أبو البقاء الكفوي والآلوسي[٣٢]، وتابعهما الطباطبائي في موارد من تفسيره[٣٣]. وهذا المصطلح يصلح بديلاً للجملة التذييلية.

٣. **جملة الخاتمة**: ويمكن إطلاقها على آخر جملة في الآية القرآنية، أو خصوص الجمل التي تتضمّن مفهوم صدر الآية[٣٤]. وإطلاقها على آخر جملة في الآية القرآنية، ليس جامعاً ولا مانعاً؛ لأنه يقصر عن استيعاب كلّ الجمل التي يصحّ أنّ تسمى تذييلية، لكون بعضها يقع في وسط الآية كما تقدم، ويضمّ إليها جملاً ليست منها، وهي خواتيم الآيات غير المذيّلة.

أما القول بأن جملة الخاتمة هي خصوص الجمل التي تتضمن مفهوم صدر الآية، فهو قول يشمل جميع الجمل التذييلية، ولا يستثني منها شيئاً.

٤. **الجملة الذيلية**: ومفهومها في النحو الوظيفي: تلك الجملة التي توجد في ذيل الجملة السابقة، وتقوم بدور تعديل أو توضيح أو تصحيح معلومة من المعلومات الواردة في الجملة المتقدمة عليها. ويقسّم بعضهم الجملة على وفق المنحى الوظيفي إلى بسيطة ومركبة، ويقسم الجملة البسيطة تبعاً للمكونات الخارجية إلى: الجمل المبتدئية، والجملة الذيلية، والجملة الندائية[٣٥]. ومصطلح الجملة الذيلية يصلح بديلاً للجملة

(٣٢) ينظر: الكليات: ٥٢٧ و١٦٤٩، وروح المعاني: ٢٨/ ١١٥.

(٣٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ١٦٤، و٨/ ٢٠٤، و١٩/ ١٦٥.

(٣٤) ينظر: جملة الخاتمة في الآيات الكونية والإنسانية –دراسة أسلوبية: ٢٨.

(٣٥) ينظر: اللسانيات وتدريس اللغة العربية(تدريس اللغة العربية من منظور لساني وظيفي): ص٨٤ –٨٥.

التذييلية، على وفق المفهوم المتقدم لها.

ومما تقدم يمكن أن نطلق مصطلح الجملة المذيِّلَة، أو الذيلية أو الخاتمة في أحد معنييها، على الجمل التي تكون في أواخر الآي مقررة لمضمون ما قبلها، أو جارية مجرى الأمثال. لكن يبدو أن إطلاق مصطلح (الجملة التذييلية)، أكثر تخصيصاً وأقرب إلى المفهوم المراد، لكون التذييل مصطلحاً وارداً في التراث البلاغي والعروضي العربي على وفق ما قدمنا، فضلاً عن أنّ كثيراً من المفسرين عبروا عن جملة التذييل بهذا المصطلح.

المبحث الأول:

أقسام الجمل التذييلية:

تأتي الجمل التذييلية بحسب إمكان استقلالها بإفادة المراد على قسمين أشرنا إليهما في تعريفها؛ الأول: الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها، وهي لم تستقل بإفادة المراد، بل تتوقف على ما قبلها. القسم الثاني: الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال. ويقصد بالجملة الثانية هنا حكم كليّ منفصل عما قبله، جارٍ مجرى الأمثال في الاستقلال وفشوّ الاستعمال[٣٦].

وبحسب الدلالة يُقسَم كلا القسمين إلى ما يؤكد منطوق الجملة الأولى، أو ما يؤكد مفهومها. والمراد بالمنطوق «ما دلّ عليه اللفظ في محلّ النطق»[٣٧]، نحو قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠]. فقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ تذييل يفيد التعليل، ويؤكد منطوق ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ حيث تشترك الجملتان باللفظ نفسه.

والمراد بالمفهوم «ما دلّ عليه اللفظ لا في محلّ النطق»[٣٨] حيث تأتي الجملة الثانية تأكيداً لدلالة الأولى دون اشتراكهما في اللفظ، نحو قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٤]. فجملة ((إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ))

(٣٦) ينظر: مختصر المعاني: ١٧٧.
(٣٧) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨٤.
(٣٨) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨٥.

تؤكد دلالة قوله سبحانه: ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، من دون اشتراك الجملتين في اللفظ.

القسم الأول:

الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها

وهي التي يؤتى بها لتأكيد مضمون ما قبلها وتحقيقه وتقريره، ولا تزيد على المعنى الأول، لعدم استقلالها بذاتها لإفادة المعنى المراد، وعدم استغنائها عما قبلها[٣٩]. فهي مرتهنة بعلاقاتها بما قبلها.

وقد أكد البلاغيون على وظيفة التأكيد، لما لها من صلة بفهم الخطاب، ومعناه «التقرير، أي: جعل الشيء ثابتاً في ذهن المخاطب»[٤٠]. وهو يقوم على التعالق التركيبي والدلالي بين طرفين، فكلّ تأكيد لابد أن يكون متعلقاً بكلام سابقٍ مؤسسٍ له، وهو بذلك يحقق الترابط بين الجملة الأساسية والجملة التذييلية[٤١].

فمن الجمل التذييلية التي لا تستقل بنفسها، بل تأتي مؤكدةً للمعنى السابق، قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [سورة هود: ١٢].

فقد جاءت جملة ((وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)) تذييلاً لقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ وقد جرت مجرى الدليل والبرهان على أنّ الرسول ﷺ ليس وكيلاً على قبول الإيمان من الناس، إنما ذلك إلى الله تعالى، فإنه عالم بحالهم، وأنه فاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم، فأمره أن يتوكل عليه في جميع أموره، وأن يقوم بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفتٍ إلى استكبارهم، ولا مبالٍ

(٣٩) ينظر: بديع القرآن: ١٥٥، والإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩١، ومختصر المعاني: ١٧٨، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٩، وأنوار الربيع: ٣/ ٣٩ -٤١، والبليغ في المعاني والبيان والبديع: ١٧٠ -١٧١.

(٤٠) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ٦٢.

(٤١) ينظر: الإطناب في القرآن الكريم، أنماطه ودلالاته -دراسة بلاغية: ٢٤١.

بسفههم واستهزائهم[٤٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... -إلى قوله- وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٢٨].

فجملة ((والله عزيز حكيم)) «تذييل وإقناع للمخاطبين؛ وذلك أن الله تعالى لما شرّع حقوق النساء، كان هذا التشريع مظنّة المتلقّي بفرط التحرّج من الرجال، الذين ما اعتادوا أن يسمعوا أن للنساء معهم حظوظاً، غير حظوظ الرضا والفضل والسخاء، فأصبحت لهنّ حقوق يأخذنها من الرجال كرهاً- إن أبَوْا -فكان الرجال بحيث يرون في هذا ثلماً لعزتهم... فبين الله تعالى أن الله عزيز، أي قوي لا يعجزه أحد، ولا يتقي أحداً، وأنه حكيم يعلم صلاح الناس، وأن عزته تؤيد حكمته، فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع، والأمر الواجب امتثاله، ويحمل الناس على ذلك، وإن كرهوا»[٤٣]. فناسبت كلمات الجملة التذييلية ما تقدّم من الأحكام التشريعية.

(٤٢) ينظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٤٨، وتفسير أبي السعود: ٤/ ١٩١، وتفسير البيضاوي: ٣/ ٢٢٤.

(٤٣) التحرير والتنوير: ٢/ ٣٨٣.

تركيب وأغراض هذا النوع من الجمل

تمتاز الجمل التذييلية بالتنوع الأسلوبي في التركيب الجملي، فقد تكون الجملة التذييلية جملةً اسميةً تفيد الثبات والإطلاق، وقد تكون فعليةً تدلّ على التجدد والاستمرار، وقد ترد بأسلوب التوكيد أو النفي أو القصر أو الاستفهام أو التعجب أو التعريض، ويصاحبها في كل ذلك أدوات ربط تسهم في إبراز دلالاتها ومدى ارتباطها بالكلام المذيَّل، كالنواسخ وحروف العطف والجزم والاستفهام والنفي وغيرها.

والجمل التذييلية من أكثر الجمل تكثيفاً واستيعاباً للمعاني، وقبولاً للظواهر اللغوية والأسلوبية المختلفة، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والتكرار، والإيجاز والإطناب، والإظهار والإضمار وغيرها،

وما يكتنف ذلك من جماليات في النظم والمناسبة والسياق والفاصلة.

أما من حيث أغراضها فقد تقدّم أنّ الغرض الأساس للجملة التذييلية، هو توكيد مضمون ما قبلها وبيان فحواه، وتلك هي الدلالة الكبرى لها، بيد أنّها تتصرف إلى أغراض ودلالات عديدة بحسب السياق الذي ترد فيه، فتتنوع أغراضها ودلالاتها بحسب المخاطب، فخطاب الكافرين يتميز بالتهديد والوعد والوعيد، وخطاب المنافقين ببيان قدرة الله عليهم وعلمه بهم، أما خطاب المؤمنين فجاء تارة بالترغيب والتشويق والمدح، وأخرى بالتشديد والتحذير، أو الدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق.

وفيما يأتي أهم تلك الدلالات التي جاءت متناسبة مع مضمون الآيات السابقة للجملة التذييلية:

ذكر أسماء الله الحسنى: تقترن أسماء الله الحسنى في الجملة التذييلية بذكر ظواهر إعجازه في خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان وبعثه، وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك من مظاهر علمه وقدرته، نحو قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة المائدة: ١٧].

مخاطبة حواس الإنسان: قد تستنطق الجملة التذييلية جوارح الإنسان وحواسه، ولاسيما السمع والبصر والفؤاد، في الآيات التي تدعو الإنسان إلى التأمل وإعمال العقل في خلق الكون والإنسان، نحو قوله سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٢٠ -٢١]. وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٠].

دعوة المؤمنين إلى التحلي بمكارم الأخلاق: الهادية إلى التخلُّق بكل خلقٍ نبيل، وأدبٍ كامل، كالعدل والتقوى والصبر والرضا بالقضاء والوفاء بالعهد والنهي عن الكبر والإسراف والبخل والظلم وغيرها، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ

مَآ أَنفَقُوٓاْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [سورة الممتحنة: ١١]. فالجملة التذييلية ((وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ)) تدعو المؤمنين إلى التقوى والى «الوفاء بما أمرهم الله، وأن لا يصدهم عن الوفاء ببعضه، معاملةُ المشركين لهم بالجور وقلة النصفة، فأمر بأن يؤدي المسلمون لإخوانهم مهور النساء اللائي فارقوهنّ، ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهنّ، ولذلك اتبع اسم الجلالة بوصف ((الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ))؛ لأنّ الإيمان يبعث على التقوى، والمشركون لما لم يؤمنوا بما أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، أي فلا تكونوا مثلهم. والجملة الاسمية في الصلة للدلالة على ثبات إيمانهم»[٤٤].

المدح والثناء: خص الله سبحانه ذوي الألباب بالمدح والثناء، وهم أهل العقول السليمة والأفهام المستقيمة، وأهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ، الذين ينظرون بعقولهم نظر اعتبار لا بأبصارهم، بما في أحكام الله من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. قال ابن عاشور: «جملة ((وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ)) تذييل، ليس من كلام الراسخين، مسوق مساق الثناء عليهم في اهتدائهم إلى صحيح الفهم. والألباب: العقول»[٤٥].

ومنه أيضاً قوله سبحانه: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]. وقوله: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٢٨].

تعظيم الحُكم: تشتمل معظم آيات الأحكام على جمل تذييلية توحي بعظم

(٤٤) التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٤٦.

(٤٥) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٨.

الحُكم الشرعي، سواء أكان الحُكم الشرعي أمراً أم نهياً، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: ٢٢]. «فالنهي عن نكاح امرأة الأب ذيّل بجملتين ((إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً)) فيهما مبالغة في ذمّ هذا الفعل، وهذا التأكيد دائماً يقع بعد الأوامر والنواهي»[٤٦].

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ -إلى قوله- وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٩]. قال الآلوسي: «((وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)) أي الهالكين، والآية تذييل لقوله: ((الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)).. الخ، تعظيماً لشأن ما أحلّه الله تعالى وما حرّمه، وتغليظاً على من خالف ذلك»[٤٧].

التعليل: تأتي الجملة التذييلية معللةً ما سبق من الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٦١] فالجملة التذييلية ((إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)) تعليل لجملة ((الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ))، أي يدخلون الجنة وعداً من الله واقعاً، وهذا تحقيق للبشارة[٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: ١١٤]. فقوله: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾. «تذييل جارٍ مجرى التعليل، أي خير من يرزق؛ لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض»[٤٩].

التوجيه والنصح والإرشاد: نحو قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة التغابن: ١٧]. قوله:

(٤٦) المعاني في ضوء أساليب القرآن: ١٣.
(٤٧) روح المعاني ٦: ٦٧.
(٤٨) التحرير والتنوير: ١٦/ ٦١.
(٤٩) تفسير أبي السعود: ٣/ ٩٨، وينظر: روح المعاني: ٧/ ٦٢.

﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾. «شكر الله لعبده هو مجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل. وقوله: ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة، بل يستر ويتجاوز عن الذنوب. ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر، ويقابل كل إساءة بحلم، ليتم معنى حسن العشرة، ولأنّ الإنفاق يستحقّ المقابلة بالشكر، والعداوة تقابل بالحلم»[٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ -إلى قوله- وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢١]. قوله: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي «لكي يتعظوا، أو يستحضروا معلوماتهم، بناءً على أن معرفة الله تعالى مركوزة في العقول، والجملة تذييل للنصح والإرشاد»[٥١].

التنبيه والتحذير: نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠]. قوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾. «أي تلك النعمة، تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم»[٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[سورة المائدة: ٧]. فقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ جملة تذييلية «للتحذير من إضمار المعاصي، ومن توهّم أن الله لا يعلم إلا ما يبدو منهم»[٥٣].

استنكار إعراض الإنسان عن الحقّ وجحوده: وغالباً ما يكون ذلك في سياق إنكار فعل غير مناسب في العقل، وتأتي الجملة التذييلية بأسلوب لاذعٍ، لا يخلو من الإنكار أو التوبيخ أو الردع، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ

(٥٠) أضواء البيان: ٨/ ٢٠٦ - ٢٠٧.
(٥١) روح المعاني: ٢/ ١٢٠.
(٥٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ٢١٤.
(٥٣) التحرير والتنوير: ٥/ ٥٥.

ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٩٥]. وقوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [سورة يونس: ٣٢]. وقوله: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٠]. وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة النحل: ٥٢].

الترغيب والترهيب: جاءت بعض الجمل التذييلية تدعو إلى الترغيب، وأخرى تدعو إلى الترهيب، وهو أسلوب بارز في القرآن، لأنه من أنجع الأساليب في الدعوة؛ لاعتماده على عنصري الثواب والعقاب، اللذين يشكلان حافزاً قويّاً للإقبال على كل ما هو نافع، والابتعاد عن كل ما هو ضار.

ومن أمثلة الترغيب قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء: ٦٩]. فلما كان الحديث عن طاعة الله والرسول وبيان مكانة المطيعين العظيمة مع النبيين والصديقين والشهداء، جاءت الجملة التذييلية لترغيب وتشويق المسلمين بهذه المكانة، قال ابن عاشور: «والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق»(٥٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٥]. قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾. «تذييل جيء به للترغيب في إتباع ملته عليه السلام، والإيذان بأنه نهاية في الحسن، وإظهار اسمه عليه السلام تفخيماً له وتنصيصاً على أنه الممدوح»(٥٥).

وقد يأتي كلا الترغيب والترهيب في آية واحدة، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٥]. وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ

(٥٤) التحرير والتنوير: ٢/ ١٩٩.
(٥٥) روح المعاني: ٥/ ١٥٤.

لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [سورة الرعد: ٦].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ -إلى قوله- ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨]. قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾. أي «غالب لا يعجزه الانتقام ممن خالف الأحكام ((حَكِيمٌ)) عالم بعواقب الأمور والمصالح التي شرّع ما شرّع لها، والجملة تذييل للترهيب والترغيب»[٥٦].

الوعد والوعيد: قد يكون الترغيب والترهيب بطريق الوعد والوعيد والتهديد، نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٢١]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ جملة تذييلية «بين الوعد والوعيد، أي سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك، فيجازي كلاً على عمله»[٥٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ -إلى قوله- وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩]. قوله: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. «تذييل للمبالغة في التهديد»[٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النمل: ٩٣]. قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ «كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل، مقرر لما قبله، متضمن للوعد والوعيد، كما ينبئ عنه إضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ»[٥٩].

القسم الثاني:

الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال

وهي جملة مستقلة، مكتفية بذاتها بإفادة المعنى المراد، يخرجها المتكلم مخرج

(٥٦) روح المعاني: ٢/ ١٣٥.

(٥٧) التحرير والتنوير: ١٨/ ١٥١.

(٥٨) روح المعاني: ٢/ ١٤٠.

(٥٩) تفسير أبي السعود: ٦/ ٣٠٧.

المثل السائر ليحقق بها ما قبلها[٦٠].

والأمثال «عبارة موجزة يتداولها الناس تتضمن فكرةً حكيمةً في مجال الحياة البشرية وتقلّباتها»[٦١]. وأمثال القرآن ليست أمثالاً ظاهرة تشتمل على حدث أو قصة مقاربة للمثل، بل هي« جارية مجرى الأمثال، وقد تداولها الناس استئناساً ببلاغتها، واحتياجاً لمضربها، حتى عادت سائرة بتتابع الاستشهاد في ضوء ما تعارفوا عليه من أمثال الخاصة والعامة»[٦٢].

وهي تمثل نوعاً من أنواع التذييل بوصفها بنية تركيبية خاصة تؤلف صورة فنية تمثيلية حية نابضة ومؤثرة في سياق النص العام، وتؤدي وظيفة تفاعلية في الجمل بين المتقدم والمتأخر، مما يتمخض عنه تعدد دلالي يدخل تحت مفهوم الإطناب العام[٦٣].

فالمثل إذن صورةٌ من صور الجمل التذييلية التي ترسل إرسالاً في النثر والشعر، لما له من أثر في نفس المخاطب، وفي تقرير المعنى بما لا مزيد عليه، ومن أمثلة الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال في الشعر، قول النابغة الذبياني:

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه

على شعثٍ أيّ الرجال المهذب[٦٤]

فقوله: أيّ الرجال المهذب؟. خرج مخرج المثل، إذ دلّ مفهوم البيت على نفي الكامل من الرجال، فحقق ذلك وقرره بقوله: أيّ الرجال المهذب؟!. وهو استفهام بمعنى الإنكار، أي ليس في الرجال مهذب الفعال، مرضيّ الخصال.

والأمثال في القرآن الكريم تعدّ أسلوباً من أساليب تعبيره، ومظهراً من مظاهر إعجازه البياني «وأكثر ما ورد التذييل في القرآن مثلاً، وجرى بمعانيه وألفاظه قريباً من ألسنة العرب في

(٦٠) ينظر: بديع القرآن: ١٥٥، والإيضاح في علوم البلاغة: ١/ ١٩١، ومختصر المعاني: ١٧٨، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٩٩، وأنوار الربيع: ٣/ ٣٩ -٤١، والبليغ في المعاني والبيان والبديع: ١٧٠ -١٧١.

(٦١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ٣٣٢.

(٦٢) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١١.

(٦٣) ينظر: الإطناب في القران الكريم، أنماطه ودلالاته -دراسة بلاغية: ٢٤٤.

(٦٤) الديوان: ٧٨.

جاهليتهم وإسلامهم»[٦٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [سورة الإسراء: ٨١]. فالجملة الأخيرة ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ جرت مجرى المثل السائر، قال ابن عاشور: «جملة ((إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)) تذييل للجملة التي قبله لما فيه من عموم يشمل كلّ باطل في كلّ زمان. وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحقّ؛ لأنه ضد الباطل»[٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[سورة البقرة: ١٠٨]. قوله: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة البقرة: ١٠٨]. «جملة مستقلة مشتملة على حكم كلي، أخرجت مخرج المثل، جيء بها لتأكيد النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ الخ، معطوفة عليه، فهي تذييل له باعتبار أن المقترحين الشاكين من جملة الضالين الطريق المستقيم المتبدلين»[٦٧].

(٦٥) الحجاج في القرآن الكريم: ١/ ٤١٥.
(٦٦) التحرير والتنوير: ٨/ ٣٦٥.

أغراض الأمثال القرآنية:

إن الآيات القرآنية الجارية مجرى الأمثال، هي عبارات وتراكيب تأتي غالباً لغايات تهذيبية نفسية، أو وعظية إرشادية، وتحمل سمات تقترب من مفهوم المثل، وإنما يضرب المثل لأجل البيان والتوضيح، وتقريب المعنى إلى ذهن السامع.

والتذييل بهذا النوع من الجمل لا يخرج من حيث أغراضه ودلالاته عن القسم الأول، ومن أهم الأغراض التي ذكرها الزركشي «التذكير والوعظ والزجر والاعتبار والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحسّ.

وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم

(٦٧) روح المعاني١: ٣٥٦.

الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمرٍ وإبطال أمرٍ»[٦٨].

فالأمثال تعين على فهم القرآن وتصور قضاياه، بإخراج المبهم إلى الواضح، والمضمر إلى المظهر، والمجرد إلى المحسوس، وهي أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ، وأقوم في الإقناع، وأعون على تجلية المعنى المراد من غيرها.

المبحث الثاني:

الجملة التذييلية والسياق القرآني

جاء في دائرة المعارف البريطانية أنّ خواتيم الآيات قد سيقت بطريقة اعتباطية، وأنّ القرآن يعطي القارئ انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية بدليل ختمه بعض الآيات بأنّ الله عليم، وأخرى بأن الله حكيم، وثالثه بأنّ الله يعلم ما لا تعلمون، وورد فيها أنّ هذه الخواتيم لا علاقة لها بما قبلها، وإنما وضعت لتتميم السجع[٦٩].

بيد أنّ المتأمّل في الجمل التذييلية يرى أنها متناسبة دلالياً مع السياق الذي ترد فيه، ومع المعنى العام للآية، فالآية دائماً تختتم بما يتلاءم مع مضمونها، ويتناسب مع صدرها، بحيث لو غيرت أو أبدل بها غيرها، لأباها الذوق السليم، وهذا مظهر من مظاهر تلاحم النص القرآني وتماسكه، وكونه نصاً واحداً نزل من لدن عظيم حكيم واحد.

ولشدّة هذا التناسب، فقد كان يدركه حتى من لم يقرأ القرآن من متذوّقي اللغة، إذ ورد عن الأصمعي، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: ٣٨]، أنه قال: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟. قلت: كلام الله. قال: أعد؛ فأعدت: والله غفور رحيم. فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أتقرأ القرآن؟. قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟. فقال: يا

(٦٨) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤٨٧.

(٦٩) ينظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: ٨٢-٨٣.

هذا، عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[٧٠].

وحكي أنّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٩]، فقرأ: فاعلموا أن الله غفور رحيم، ولم يكن الأعرابي يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا. ومرّ بهما رجل، فقال: كيف تقرأ هذه الآية؟. فقال الرجل: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال: هكذا ينبغي؛ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه[٧١].

فكان مفهوم الجمل المتقدمة في الموردين يوحي بمفهوم الجملة التذييلية بحيث لا يمكن العدول عن تركيبها إلى تركيب آخر، لما بينهما من عرى لا تنفصم، فالسابق يمهد للاحق، واللاحق يؤكد السابق.

(٧٠) زاد المسير: ٢/ ٢٧٤.

(٧١) تفسير النسفي١: / ١٠٠، تفسير الرازي: ٥/ ٢٣١، البحر المحيط: ٢/ ١٣٢، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧١.

تناسب الجملة التذييلية مع السياق دلالياً:

إن لموقع الجملة التذييلية في السياق بالغ الأثر في تحديد الدلالة من خلال ارتباطها بالمعنى الكلي المتقدم، وما يترتب عليه، حيث إنها تمثل خاتمة ونهاية أكثر رسوخاً ومكوثاً في الذهن.

ومن أعظم ما يتصل بالسياق من علوم القرآن والتفسير هو علم المناسبة، الذي يختص بربط كلام الله تعالى بعضه ببعض، ويعين على فهم الآية، ويظهر اتصال السياق بين الآيات، ويكشف عن إعجاز القرآن البياني. وعرف البقاعي علم المناسبة القرآني بأنه: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال»[٧٢].

من هنا عني علماء التفسير ببيان المناسبة بين الجمل، وبين الآيات، وبين السور، واجتهدوا في استنباط وجوه الارتباط بينها، منهم كالزمخشري (ت

(٧٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/ ٦.

٥٣٨هـ) في (الكشاف)، والفخر الرازي (ت٦٠٦ هـ) في (مفاتيح الغيب)، والزملكاني(ت ٦٥١هـ) في (البرهان في إعجاز القرآن)، والزركشي (ت٧٩٤هـ) في (البرهان في علوم القرآن)، والغرناطي (ت٨٠٧هـ) في (البرهان في ترتيب سور القرآن)، و (ملاك التأويل)، والبقاعي (ت ٨٨٥ هـ) في (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)، في (الإتقان) و(أسرار ترتيب القرآن) و (أسرار التنزيل) و(تناسق الدرر في تناسب السور)، وأبو السعود (ت٩٥١هـ) في (إرشاد العقل السليم)، والآلوسي(ت١٢٧٠هـ) في (روح المعاني)، والطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في (التحرير والتنوير)، والغماري (ت١٤١٣هـ) في (جواهر البيان في تناسب سور القرآن).

ومن الدراسات الحديثة كتاب (أسماء الله الحسنى في خواتم آيات سورة الفاتحة والبقرة)، للدكتور علي بن سليمان العبيد، و(التناسب البياني في القرآن- دراسة في النظم المعنوي والصوتي) للدكتور أحمد أبو زيد، وغيرها كثير.

أقسام التناسب:

ويمكن تقسيم تناسب الجمل التذييلية مع ما يتقدمها، من حيث ظهور الدلالة أو عدمه، على قسمين:

الأول: التناسب الظاهر:

قد يكون الأثر السياقي ظاهراً والتناسب ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى كثير عناء، ولاسيما إذا كانت الجملة التذييلية تؤكد منطوق الجملة الأولى، أي تشتمل على لفظةٍ، وقد تقدمت تلك اللفظة بعينها في أول الآية، ويسمّى تصديراً، أو ردّ العجز على الصدر(٧٣). نحو قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [سورة آل عمران: ٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص: ٧٧].

(٧٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٧٩ و٩٤، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧١.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٤].

الثاني: التناسب الخفي:

قد يحتاج الوصول إلى المناسبة في سياقات أُخر إلى مزيد من التأمل والفكر، وذلك في موارد أهمها:

المورد الأول: اختلاف الجملتين التذييليتين، واللفظ السابق لهما واحد:

من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في تناسب الجملة التذييلية مع سياقها القرآني، أن ترد آيتان متحدتان لفظاً في سياقين مختلفين، غير أنهما تُذيّلان بجملتين مختلفتين، ومن ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤]. وقوله في سورة النحل: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النحل: ١٨].

فاللفظ السابق للجملتين التذييليتين واحد، وهو قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ أما الجملتان التذييليتان فمختلفتان من ناحية الألفاظ، بيد أنّ الخاتمة في كل منهما منسجمة في الإيقاع مع فواصل الآيات التي وردت في السياق، فضلاً عن الانسجام الدلالي لكل منهما مع السياق العام للآيات التي وردت ضمنها.

ففي السياق الأول كان الوصف للمنعم عليه، وهو الإنسان وما جبل عليه من نكران الجميل وكفران النعم، فناسب أن يقول عقب أوصافه بأنه ظلوم كفار. وكأن الله يقول له: أنا المعطي، وأنت الآخذ المستفيد، فحصل لك -أيها الإنسان -عند الأخذ وصفان: كونك ظلوماً، وكونك كفاراً.

أما السياق الثاني فكان الوصف للمنعم، وهو الله تبارك وتعالى، وإثبات إلوهيته وتحقيق صفاته، وذكر نعمه الكثيرة التي أسبغها على الإنسان، فناسب ذكر وصفه بأنه غفور رحيم في ختامها، وكأنه الله سبحانه يقول: لي عند إعطاء تلك النعم صفتان: وهما إني غفور

رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي[٧٤].

ونظيره قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الجاثية: ١٥]. وقوله في سورة فصلت: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فصّلت: ٤٦]. «ونكتة ذلك أنّ قبل الآية الأولى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الجاثية: ١٤] فناسب الختام بفاصلة البعث؛ لأن قبله وصفهم بإنكاره. وأما الثانية فالختام فيها مناسب؛ لأنه لا يضيع عملاً صالحاً، ولا يزيد على من عمل سيئاً»[٧٥].

ونظيره قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٤٨]. وقوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١١٦].

فالآيتان في السورة المباركة متطابقتان في اللفظ، إلا أنهما ختمتا بجملتين مختلفتين؛ والسبب في الاختلاف يرجع إلى اختلاف المخاطب أي اختلاف سياق المقام الذي يعد المتلقي أحد مكوناته، فقد ذكر تعالى قبل الآية الأولى اليهود وتحريفهم وخداعهم ونفاقهم، وافتراءهم الكذب على الله، وبين أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويرغبون في إضلال المسلمين، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [سورة النساء: ٤٤]. ثم قال سبحانه: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ -إلى

(٧٤) ينظر: ملاك التأويل: ٢/ ٧١٨، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٦، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٤، ومن بلاغة القرآن: ٨٤، ووجوه من الإعجاز القرآني: ٣٦، والتعبير القرآني: ١٩٧، والتعبير الفني في القرآن: ٢٠٥.

(٧٥) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٧، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٤.

قوله -﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء: ٤٦].

ثم دعتهم الآيات إلى الإيمان بالله وحده وعدم الإشراك به، فإنّ عذابه آت لا محالة لمن أشرك به وافترى عليه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [سورة النساء: ٤٧]. فناسبت ما تقدم من أوصاف الشرك بالله والافتراء عليه أن تكون جملة التذييل: ((وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)).

أما الآية الثانية التي ذيلت بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. فقد تقدمها ذكر المنافقين في زمان الرسول ﷺ، وما صدر منهم من إتباع الهوى والانحراف عن السراط السوي، قال عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥]. فالآية تتحدث عن الذين يشاقون الرسول ﷺ، ومن يشاقق رسول الله ﷺ فهو في ضلال بعيد، ومن يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين فإنه يضل عن السواء، ويدخل جهنم فيكون في ضلال بعيد، فسياق الآيات، وما تضمنه من ابتعاد المنافقين عن جادة الحق، يتناسب مع ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٧٦).

المورد الثاني: اتفاق الجملتين التذييليتين، واللفظ السابق لهما مختلف:

قد ترد الجملتان التذييليتان بلفظٍ واحد في سياقين مختلفين، وفي الموردين يتناسب معنى الجملة التذييلية مع سياقها الذي ترد فيه، وهو في غاية الدقة والجمال في التعبير القرآني، كقوله تعالى في سورة النور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -إلى قوله- كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال في الآية التالية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ

(٧٦) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٣٤٧، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٧، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٤، وسورة النساء دراسة لغوية تحليلية: ٤٠ -٤٢.

مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [سورة النور: ٥٨ -٥٩].

فقد جاءت الجملتان التذييليتان بلفظ واحد ((وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)) في سياقين مختلفين، ويراد في الآية الأولى «عليم بمصالح عباده، حكيم في بيان مراده، وقال في الثانية عليم بمصالح الأنام، حكيم ببيان الأحكام»[٧٧].

المورد الثالث: اختلاف الجملتين التذييليتين، واللفظ السابق لهما مختلف:

ومن ذلك قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [سورة غافر: ٧٨]. وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة غافر: ٨٥]. فختم الآية الأولى بقوله: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾؛ لأنها وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل. وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾؛ لأنها وردت في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر[٧٨].

ونحو قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧١]. وقوله سبحانه في الآية التي تليها: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٢].

فقد ذيل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾؛ لأنه جعل الليل وكأنّه لا موجود سواه، فاقتضى السياق أن يقول: ﴿ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ للمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار.

وذيل الآية التي تليها بقوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾؛ لأنه جعل وجود النهار سرمداً، فاقتضى السياق أن يقول:

(٧٧) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٩، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥.

(٧٨) التعبير القرآني: ٢٠١.

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ إذ النهار مضيء صالح للإبصار، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية(٧٩).

ومنه قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[سورة السجدة: ٢٦ -٢٧].

فقد جاءت الجملة التذييلية في الآية الأولى: ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾؛ لأن الموعظة فيها سمعية، لقوله في أولها: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾، ولم يقل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾، كما في الآية الثانية; ولأنه تقدم ذكر الكتاب قبلها في قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [سورة السجدة: ٢٣]. وهو مسموع، وورد فيها أخبار القرون وهي مسموعة أيضاً. فناسب أن تكون الجملة التذييلية ((أَفَلَا يَسْمَعُونَ)).

أما الآية التالية لها فان موعظتها مرئية، لقوله في صدرها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾؛ ولأن سوق الماء إلى الأرض الجرز وإخراج الزرع والأكل منه كلها أمور مرئية، فناسب أن يقول في ذيلها ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾(٨٠).

ومنه قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجّ: ٦٣ -٦٥].

فقد ذيل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾؛ لأنه ورد في السياق ذكر موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وإخراج النبات من الأرض، ولأنه تعالى خبير بنفعهم.

(٧٩) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٢، روح المعاني: ٢٠/ ١٠٧.

(٨٠) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٠، وروح المعاني٢١/ ١٤٠، والبحر المحيط: ٧/ ٢٠٠.

وذيل الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾؛ لقوله قبلها: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا لحاجة إليهما، بل هو غنيّ عنهما، جوادٌ بهما؛ لأنه ليس غنيّ نافعاً غناه إلاّ إذا جاد به، وإذا جاد وأنعم استحقّ عليه الحمد.

وذيل الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض لهم، وإجراء الفلك في البحر لهم، وتسييرهم، وما في ذلك من الهول العظيم، وجعله السماء فوقهم وإمساكه إياها عن الوقوع، حسن ختامه بالرأفة والرحمة[٨١].

ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١ -١٣].

فقد ذيل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾. وذيل الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾. ولم يكن التذييل اعتباطياً في الموردين «وإنما جاء لملائمة معنى الآية التي ختمها، فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض بأعمال يُشعر بها، وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٤]؛ لأنّ الرؤية إحدى الحواس، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٥٥]؛ لأنّ العذاب مما يُشعر به ويُحسّ.

ولكن لمّا كانت الآية الثانية تتعلّق بالسفه -وهو الجهل -وهو أمرٌ يتعلّق بالتفكير والعقل، ناسب أن تُختم بنفي العلم»[٨٢].

المورد الرابع: ما ظاهره مخالفة

(٨١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨١.

(٨٢) لغة القرآن -دراسة توثيقية فنية: ١٧٨.

الجملة التذييلية للسياق:

قد يخفى وجه الحكمة على بعضهم، فيتبادر إليه أنّ السياق يقتضي جملة تذييلية غير المذكورة، نحو قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة المائدة: ١١٨].

فقد يقال: لماذا لم تذيل الآية بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ لأن المقام مقام صفح وغفران لقوله: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾؟. وقد نقلت عن مصحف أُبي (فانك أنت الغفور الرحيم) وبها قرأ ابن شنبوذ(٨٣).

وإنما ذيل الآية بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لحكمة تظهر بالتأمل «فإذا أمعن الإنسان النظر، وجد أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من ليس فوقه أحد يردّ عليه حكمه، وكانت سلطته أعلى السلطات، وقوته أعظم القوى، وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك يجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي تضع الشيء محله، فحين جاءت الفاصلة بالعزة للإشارة إلى أن القادر على العقاب عزيز دائماً، وهو قادر على المغفرة، كما هو قادر على العقاب، ولم يكن كافياً أن يقتصر على وصف العزة؛ لأنه ليس كل قادر عادلاً أو حكيماً، فقرنت العزة بالحكمة. والمعنى إن تغفر لهم -وهم مستحقون للعذاب- فلا اعتراض عليك من أحد في ذلك، والحكمة متحققة فيما فعلته»(٨٤).

ومنه قوله في سورة البقرة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٩].

وقوله في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٩]. فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة التذييل بالقدرة، وفي آية آل عمران التذييل بالعلم.

(٨٣) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥.

(٨٤) لغة القران -دراسة توثيقية فنية: ١٨١-١٨٢. وينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥.

والجواب «أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها، على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلق السماوات خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالماً بما فعله كلياً وجزئياً، مجملاً ومفصلاً، ناسب ختمها بصفة العلم، وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة»[٨٥].

انتهى البحث بحمد الله ومنّه.

نتائج البحث

١. التذييل عن البلاغيين إنما يكون بجملة تامة، تحتفظ بعلاقات الإسناد والتركيب والإفادة، وهي جملة موجزة يذيل بها الكلام ليتحقق بها ما قبلها، وتتضمن معناه توكيداً وتقريراً. أي إنها تؤدي وظيفةً إيضاحيةً بيانيةً، أو توكيديةً تحقيقيةً.

٢. قد يتبادر إلى الذهن أنّ الجملة التذييلية يتوجب أن تقع في آخر الآي، بيد أنها قد تقع في وسطها، أو في ختامها، أو تكون آيةً برأسها، تأتي بعد تمام المعنى، على سبيل التأكيد أو التقرير والتحقيق.

٣. هناك اصطلاحات بديلة عن الجملة التذييلية، منها: المذيلة، والذيلية، والخاتمة، والفاصلة، ويمكن أن نطلق مصطلح الجملة المذيّلة، أو الذيلية، أو الخاتمة في أحد معنييها المتقدمين، على الجمل التي تكون في أواخر الآي مقررة لمضمون ما قبلها، أو جارية مجرى الأمثال. لكن يبدو أن إطلاق مصطلح الجملة التذييلية، أكثر تخصيصاً وأقرب إلى المفهوم المراد، لكون التذييل مصطلحاً وارداً في التراث البلاغي والعروضي العربي على وفق ما قدمنا، فضلاً عن أنّ كثيراً من المفسرين عبروا عن جملة التذييل بهذا المصطلح.

٤. ترد الجمل التذييلية على أنواع متعددة وألوان متباينة، فتقسم بحسب إمكان استقلالها بإفادة المراد

(٨٥) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٦.

على قسمين أشار إليهما البلاغيون: الأول: الجملة المؤكدة لمضمون ما قبلها، الثاني: الجملة التذييلية الجارية مجرى الأمثال. وكلاهما قد يؤكدان المنطوق، وقد يؤكدان المفهوم.

٥. الغرض الأساس للجملة التذييلية هو توكيد مضمون ما قبلها وبيان فحواه، وتلك هي الدلالة الكبرى لها، بيد أنّها تتصرف إلى أغراض ودلالات عديدة بحسب السياق الذي ترد فيه، وقد استخرجنا أهم تلك الدلالات.

٦. تتناسب الجملة التذييلية مع السياق دلالياً، تناسباً ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى كثير عناء، ولاسيما إذا كانت الجملة التذييلية تشتمل على لفظةٍ، وقد تقدمت تلك اللفظة بعينها في أول الآية. أو تناسباً خفياً يحتاج الوصول إلى المناسبة في بعض السياقات إلى مزيد من التأمل والفكر.

من هنا فالجملة التذييلية مظهر من مظاهر تلاحم النص القرآني وتماسكه الذي يعين العقل على الفهم والاستيعاب بشكل جيد لا لبس فيه، ويبرز الحكمة من ضرب الأمثال حسب مقتضيات الأحوال. وكل ذلك يشهد على كونه نصاً واحداً من عند الواحد، وهو يشهد بحق وصدق على إعجاز القرآن.

٧. الجملة التذييلية خلاصة موجزة لما قبلها، فهي أكثر الجمل تكثيفاً واستيعاباً للمعاني، وقبولاً للظواهر اللغوية والأسلوبية المختلفة، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والتكرار، والإيجاز والإطناب، والإظهار والإضمار وغيرها، وما يكتنف ذلك من جماليات في النظم والمناسبة والسياق والفاصلة. من هنا فهي بحاجة إلى دراسة مستفيضة تغطي هذه الجوانب.

٨. تمتاز الجملة التذييلية بالتنوع الأسلوبي في التركيب الجملي، فقد تكون الجملة التذييلية جملةً اسميةً تفيد الثبات والإطلاق، وقد تكون فعليةً تدلّ على التجدد والاستمرار،

وقد ترد بأسلوب التوكيد أو النفي أو القصر أو الاستفهام أو التعجب أو التعريض أو القصر، ويصاحبها في كل ذلك أدوات ربط تسهم في إبراز دلالاتها ومدى ارتباطها بالكلام المذيَّل، كالنواسخ وحروف العطف والجزم والاستفهام والنفي والتوكيد وغيرها. وهذا أيضاً مما يحتاج إلى عناية المختصين من الباحثين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع[٨٦]

١. إعجاز القرآن: الباقلاني، لأبي بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

٢. الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم الخفاجي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.

٣. البحر المحيط: أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبد المجيد النوتي، ود. أحمد الجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢-٢٠٠١م

٤. بديع القرآن: ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة النهضة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.

٥. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٦. البليغ في المعاني والبيان والبديع: الشيخ أحمد أمين الشيرازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٧. البيان في عد آي القرآن: أبو عمرو

(٨٦) فصَّل السيد الباحث ذكر مصادره ومراجعه في ثماني صحائف اختصرناها في اربع... فنعتذر.

الداني، (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٨. التسهيل لعلوم التنزيل: الغرناطي الكلبي، (ت ٧٤١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ -١٩٨٣م.

٩. التعبير الفني في القرآن: د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

١٠. التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٧م.

١١. التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٢. جملة الخاتمة في الآيات الكونية والإنسانية -دراسة أسلوبية: نور هاني محمد سمحان، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين ٢٠٠٩م.

١٣. الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٤. زاد المسير: ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

١٥. سورة النساء دراسة لغوية تحليلية: أطروحة دكتوراه، نعمه يعقوب محمود الحسّان، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١٦. صور البديع، فن الأسجاع: علي الجندي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥١م.

١٧. الصورة الفنية في المثل القرآني- دراسة نقدية بلاغية: محمد حسين

علي الصغير، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٨. الفاصلة في القرآن: محمد الحسناوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م. دار عمار، الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

١٩. الفاصلة القرآنية: د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٢٠. الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١. فواصل الآي في القرآن الكريم: عبد العزيز فيصل سالم، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢٢. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م.

٢٣. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: د. فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٢٤. الكليات -معجم المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، قابله ووضع حواشيه: د. عدنان درويش، ود. محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

٢٥. اللسانيات وتدريس اللغة العربية (تدريس اللغة العربية من منظور لساني وظيفي): عبد الوهاب صديقي، مجلة الدراسات الأدبية، الجامعة اللبنانية، العدد الثاني، السنة الثانية، ديسمبر، ٢٠١٢.

٢٦. لغة القران -دراسة توثيقية فنية: د. احمد مختار عمر، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٧. لغة القرآن الكريم في جزء عمَّ: محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربية

للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
٢٨. مباحث في علوم القرآن: منّاع القطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة عشر، ١٤٠٦هـ-١٩٨٣م.
٢٩. مختصر المعاني: سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، دار الفكر، قم، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٣٠. المعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.
٣١. معترك الأقران في إعجاز القرآن:- جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط، ١ ١٩٨٨.
٣٢. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من اللفظ في آي التنزيل: احمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، (ت ٧٠٨) تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٣. من بلاغة القرآن: د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٥٠م.
٣٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٣٥. وجوه من الإعجاز القرآني: مصطفى محمد زكي الدباغ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.